بنية الخطاب الروائي في النص

أ. جرموني رقية
جامعة تلمسان

ملخص:
شهد النقد الأدبي والدراسات النقدية الحديثة نوعا من التغير في القرن الماضي تمثل في التعامل مع النص الروائي برؤية جديدة ومختلفة ، بعد أن كان يدرج بالطرق التقليدية في العملية الإجرائية ، ومن ثم تبلورت اشكالية النقد وعلاقته باللسانيات كمنهجا يعول عليه في اكتشاف تقنيات الكتابة الروائية وأيضا في كيفية دراسة الرواية، من زوايا مختلفة ، كونهاتمتلك القدرة الفنية في معالجة انشغالات الانسان عبر الأزمنة المختلفة، وبالتالي فتح المجال لتحليل العناصر الفعالة في الخطاب الروائي.
الكلمات المفتاحية :الخطاب ،الرواية ،النص،النقد .

Abstract:
Literary Criticism and contemporary critical studies have witnessed a change in the twentieth century concerning dealing with the novel text within a new and different vision, a text that was integrated in the procedural process according to the traditional methods. Consequently, the problematic of criticism and its relation to linguistics has emerged as an effective method in determining the novel writing techniques, as well as analyzing it from different parts and aspects, because it has the artistic ability to study the human concerns through different ages, opening up possibilities to analyze the efficient elements of the novel discourse.
Keywords: discourse, novel, text, criticism

مقدمة :

"تنتج النصوص الأدبية وتؤول أيضا بوساطة شفرات يقررها الجنس أو النوع الأدبي وكذلك بوساطة شفرات اللغة"1

ومن هنا يجب الحرص على خصوصية الآلية الإجرائية التي نتعامل معها في توفير الشروط الممكنة لتأويل ملائم يراعي أنساق البنية المتعامل معها وأشكال تمفصلها وانتظامها بمسافات العبور المعرفي من المستوى اللساني إلى المستوى التأويلي، ولذا رأيت تحديد مفهومي الخطاب الروائي والنص بغرض الكشف عن كيفية المزج والجدل بين هذين القطبين ولارتباطهما بالرواية كخطاب ملفوظ منجز في النص.

مفهوم الخطاب:

تختلف دلالات الخطاب باختلاف اتجاهات ومجالات تحليله، وعلى هذا الأساس تتداخل التعريفات أحيانا أو تتقاطع.

"والخطاب هو ضرب من النيج، ذلك أن هذا المصطلح من أقدم مصطلحات النقد الأدبي في العربية الدالة على تمثل الكلام في شكل بنى وهذه البنى تنضاف إلى بعضها لتؤلف نسجا"2

وبما أننا بصدد الحديث عن الخطاب، من الإنصاف أن نذكر أن الخطاب الأدبي القديم إعتلى عرشه الخطاب الشعري حتى قيل: "الشعر ديوان العرب"، لكن حينما جاء الخطاب القرآني فقد أذهل الشعراء والأدباء، فوقف البعض في حيرة من أمره يسأل نفسه: "من أين لهذا الخطاب كل هذه العظمة؟ فقد أحدث ثورة عجيبة في الحرف اللغوي المألوف، أو في البنية الشعرية.

ويصنف الخطاب الأدبي إلى شعري ونثري"أما الخطاب النثري ومنه الخطاب الروائي فموضوعه ليس الرواية ولكن الخطاب، وليس الخطاب غير الطريقة التي يقدم بها المادة الحكائية في الرواية، قد تكون المادة الحكائية واحدة لكن ما يتغير هو الخطاب في محاولته كتابتها ونظمها أما الخطاب الشعري فيعتمد على الإيقاع".3

وينتسب الخطاب النثري إلى حقول معرفية مختلفة، منها: الخطاب الأسطوري، فالخطاب الديني ثم الخطاب السياسي، بالإضافة إلى الخطاب القانوني، وهنالك الخطاب المنهجي ولذا تعددت مقارباته النقدية بحسب نوعه.

والحقل المعرفي الذي يهمنا في هذه الدراسة هو حقل النقد واللسانيات الذي حاول إماطة اللثام لمعرفة البنى المكونة للخطاب[منطوقا كان أم مكتوبا] انطلاقا من وسائل إجرائية: لسانية، أسلوبية، سيميائية، بنيوية.

ونظرا لتعدد مناهج تحليله قسمه المتخصصون إلى ثلاثة أقسام أساسية: الخطاب السردي، الخطاب الحكائي، والخطاب البرهاني.

وكان أبو حيان التوحيدي قد تحدث عن مستويات الخطاب بقوله: "الكلام على الكلام" إذالمستوى الأول:يعني به الكلام،أما المستوى الثاني: والمتمثل في الكلام على الكلام، يقصد به كلام الأمور المعتمد فيها على صور الأمور وشكولها التي تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحس ممكن وفضاء هذا متسع، والمجال فيه مختلف.4

ويعتبر الخطاب من المصطلحات المتداولة في حقل اللسانية الحديثة ".ويستدل به على كل جنس الكلام الذي يقع به الخطاب، سواء أكان شفويا أم مكتوبا".5

أما في مجال علم النفس وعلاقته بالنقد الأدبي حاولت الأعمال المطروحة في هذا السياق أن تولي اهتمامها النقدي في البحث في "نفسية المؤلف إلى الشخصية في العمل الأدبي، ومن ثم إلى نفية القارئ، منها إلى العلاقات بين المؤلف والقارئ والنص واللغة".6

وفي هذا المنحى نورد دراسة جاك لاكان (Jaques Lacan) للبنى اللغوية وعلاقتها بالمجال النفسي حيث يرى أن بنية اللغة شبيهة ببنية اللاوعي"،7 ومن هنا نستشف ذلك الربط الذي أقامه جاك لاكان بين اللغة بوصفها ظاهرة إنسانية في الوجود البشري، تشمل نظاما من الرموز والعلامات تشكل بناء مستوياتها: الصرفية والدلالية والتركيبية والمعجمية، واللاوعي الذي يعدو بنية من التصورات والأفكار والهواجس.

ومن زاوية أخرى منهم من يعتبر الخطاب تعبير للمظاهر الاجتماعية و نذكر على سبيل المثال لا الحصر الفيلسوف الماركسي ميشال بيشو وتبنيه المنهج المعرفي اللساني بوصفه خزان العلامات ليبرز به أدوات تحليل قادرة على كشف النظام الإديولوجي.

ومن خلال ما سبق ذكره يتضح لنا أن حركة النقد المعاصر استثمرت قيما واضحة تتعلق بتحليل الخطاب، حيث تركز على البنية النصية والنق المكون لها، معتمدة على بنية الخطاب اللغوي، وعملت على وضع معايير للكتابة الفنية والأدبية.

وضع لمفهوم "خطاب" عدة مصطلحات، فالخطاب (Discours) هو مجمل القصة، أو النظام اللغوي المخصوص الذي يؤدى شفويا أو كتابيا.أي أن الخطاب هو تجسيد عملية التلفظ في الملفوظات أو عملية التلفظ المنتجة لهذا الملفوظ، إنه ملفوظ باعتباره يحيل إلى الفعل الذي ينتج.8

ونورد في هذا المقام رأي إيميل بنفست في قوله نحو : "أن الفعل الذاتي في استعمال اللغة وهو فعل لازم في إنتاج أيما نص، ويعني الثاني، أي التلفظ الموضوع اللغوي المنجز الذي يستقل عن التلفظ الذي أنجزه"،9وبهذا يكون إميل بنفست قد طرح كلمة "خطاب" بمعنى ملفوظا ويعني التلفظ.

وفي نفس الشأن يعتبر تودوروف T.Todorov الخطاب على أنه هو الطريقة التي تقدم بها القصة، فاللساني يعتمد في تحليله للفعل على الزمن، وجهته وصيغته، فإن مكونات الخطاب الحكائي من هذا المنظور، هي مكونات الجملة الفعلية.

بينما جماعة ليبج " فتعتبر الخطاب شكلا للتعبير، وهذا الشكل لا يمكن أن يدرس إلا في ارتباط بشكل المضمون لما بينهما من صلات تتحدد بواسطتها العلامة الحكائية التي تشكل من خلال علاقة حكي السارد بالحكي المسرود أو بتعبير آخر بين الخطاب (Discours) والحكي (Recit) ".10

إن جماعة ليبج "تميز بين الخطاب والحكي، فتتناول الخطاب من وجهة زمنية بجميع سياقاتها (علاقات المدة، التتابع، التضمين، فضاء الخطاب، وجهة النظر)، في حين تتم دراسة الحكي من خلال الشخصيات والقرائن والمؤشرات والأشياء والعوامل، وينبهنا ميخائيل باختين أن كل خطاب هو خطاب داخل خطاب، حيث يقول: "المتكلم وخطابه بوصفهما موضوعا للخطاب، موضوع خاص: فلا يمكن أن تكلم عن الخطاب مثلما نتحدث عن موضوعات أخرى للكلام: أشياء خاصة، ظواهر، أحداث..ذلك أن الخطاب يستلزم طرائق شكلية جد خاصة في الملفوظ وفي التشخيص اللفظي".11

وفي نظر ميخائيل باختين M.Bakhtine العمل الأدبي هو قبل كل شيء تعدد للأصوات، وهو تذكر وتوقع لخطابات سابقة آتية، إنه تقاطع وموضع التقاء. إن موضوع باختين هو التناص، ليس كمجرد طرائق شكلانية، ولكن كانتماء إلى تاريخ الثقافة.12

وبذلك هو يؤكد على أن الخطاب المروي هو إنتاج المؤلف الذي يكون أسلوب الرواية فيه منبر أساليب متعددة ومتنوعة.

في هذا الطرح نجد باختين يقيم تصورا نظريا لعلاقة الرواية بالإيديولوجيا والمستوى من المنظور البنيوي التكويني الذي يبحث في العلاقة بين الإبداع الإنساني وصلته بالبيئة التي يتفاعل معا إلى استقراء التاريخ الفكري والفلسفي الذي هدفه ربط علاقة الإنتاج الفني بالشروط الإجتماعية التي أنتجته.

كون المنظور البنيوي التكويني يهدف "إلى كشف الأنساق المعرفية والدلالية للرواية العربية، بحيث يتحول إلى نمط للمعرفة يشارك في التشييد الاجتماعي من منظور علمي إلى جانب الأنساق المجتمعية الأخرى الفكرية والفلسفية والثقافية والإيديولوجية". 13وعليه فبنية الخطاب الروائي هي بنية حالة، وعلم خاص من الأصوات والعلاقات.

وعليه يعتمد في العمل التحليلي على محورين: المحور الأفقي أو الآني Synchronique والمحور العمودي Diacronique، فالأول يعتمد الوحدات اللغوية الإستبدالية داخل الترسيمة السياقية، والثاني وهو وصفي، ويعتمد تحليل الظواهر على جملة علاقاتها المتراكبة، وانتظامها في نسق دينامي.14 لكن في حالة ثابتة سكونية.

فالأول فيؤدي وظيفة تعاملية لأنه يعبر عن المحتوى محاولا تجسيد خصائص التفاعل الاجتماعي لغويا ، والثاني يؤدي وظيفة تفاعلية يصف بهاالعلاقات الإجتماعية والمواقف الشخصية مؤكدا بذلك على العلاقة التواصلية بين أفراد المجتمع.

والمتتبع في اللسانيات النظرية وعلم الدلالة تتضح له تلك العلاقة العلائقية في ربط مفهوم الإرجاع بدلالة العلامة اللغوية أو مفردات "اللغة، واعتمدت على علاقات ثلاث: الدال (اللفظ) والمدلول (المعنى) والمرجع (الشيء الذي يدل عليه) فألفاظ اللغة تحيل إلى المعاني، فتكون العلاقة الإرجاعية قائمة مباشرة بين المدلول والمرجع، وبشكل غير مباشر، وعن طريق المدلول بين الدال والمرجع.

ويعتبر جون ليونزفي هذا المجال أحد أهم ممثلي النظرة التعاملية خصوصا من خلال مؤلفه "اللغة والمعنى والسياق" بافتراضه أن أهم وظيفة للغة تكمن في إيصال المعلومات دلالة، على أن لهذه اللغة دورا إبلاغيا يعبر عن مقصدية المتكلم.

ويتفق مع تقريبا جون ليونزعند تميزه بين المعنى والمرجع من جهة، وبين المفردة اللغوية والعبارة الكلامية من جهة أخرى، فالمفردة وحدة معجمية لا تحيل إلى مرجع، أما العبارة فهي استعمال المفردة في صيغة فردية، وهي تحيل على المرجع". 15

لكن ما ينبغي ان نشير إليه أن تحليل الخطاب من حيث موضوعه يتضح في اتجاهين مختلفين:

إذ نجد أن اللسانيين يعتمدون على "البنية اللغوية للنص بوصفه وحدة واحدة وغايتها الأولى والأساسية غاية وصفية، وقد ينطلق العمل من الوحدات الصغرى إلى نظيراتها الكبرى وصولا إلى دراسة بنية العمل الأدبي اعتمادا على لغته ويصطلح عليه باتجاه لسانيات النص-

هو اتجاه ينظر إلى النص إلى ما هو خارج الجملة، فيعتبرونه كيانا لغويا واحدا بدواله ومدلولاته."16

ولا يفهم الخطاب إلا بالنظر إلى موضوعه إلا ضمن مجموع الروابط التي تربط مفاصله في إطار كلي.

وبهذا الشكل يقع تقارب بين المصطلحين: السرد وموضوع الخطاب"فالسرد هو الكيفية التي تروى بها القصة عن طريق هذه القناة نفسها وما تخضع له من مؤشرات، بعضها متعلق بالراوي والمروي له، والبعض الآخر متعلق بالقصة ذاتها".وضمن هاته العملية نعاين المحكي وطريقة الحكي (القصة/ الخطاب).17

ويفهم مما سبق أن السرد والخطاب هما إطاران تتشكل اللغة فيهما" فنحن نستعمل بكل بساطة تسميات مثل عملية "آلية الكلام، آلية الخطاب، الكلام، المتكلم، المخاطب، " فاستعمالنا هذا يعبر بوضوح عن فحوى هذه المفاهيم المترابطة، كما يظهر بواسطة الاشتقاق الصلة المعنوية بين الكلام (النص أو الخطاب أو وحدات منها)".18

إن الدراسة التركيبية للخطاب الروائي تفضي إلى تفجير هياكله اللغوية، فقد وجهنا اهتمامنا في هذا التوجه إلى دراسة بنية الجملة، لأنها الوحدة اللغوية الرئيسة في عملية التواصل، وفي تحديد الخطاب كمنظومة من الجمل لتكون الخطاب السردي للرواية.

فمفهوم الخطاب وموضوعه يرتبط أساسا ببنية الجملة، فقد تم تعريفها بناء على معيارين: تركيبي ودلالي، يلتمس المعيار الأول: الفعل وفاعله، فالجملة هنا تركيب إسنادي، ويتجلى المعيار الثاني في الإبلاغ، وتتمثل في ميزة التخاطب بين متكلم ومستمع.

وقد عرّف ابن جني في كتابه "الخصائص" الجملة وقد ثبت بما شرحناه وأوضحناه أن الكلام إنما هو في لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها المستغنية عن غيرها، هي التي يسميها أهل هذه الصناعة الجملة على اختلاف تركيبها.19

فنجد في التفكير العربي أن مصطلحي الجملة والكلام كانا مترادفين، فالكلام جنس للجمل تؤدي معنى ما في شكل ملفوظ قبل أن تنجز في الكتابة في صورة بنية خطية تحمل مؤشرات دلالية.

وقد اتسمت الدراسات اللسانية الحديثة بالجملة وخاصة منها المقاربة السيميائية التي أعطتها بعدا دلاليا مهما في قراءة السياق،أما الأساس الوظيفي للجملة فيمكننا من تقسيمها حسب البساطة والتركيب، إلى جملة كبرى وأخرى صغرى

لذا يقوم تحليل الخطاب السردي للرواية على نسج دلالي عام، يحدد طرق الاتساع التي يوفرها السياق و البحث عن خصائص انسجام الخطاب في بنيته السطحية والعميقة، وتفاعل عناصرها، وهذا يدل على تفطن العلماء اللسانيين المحدثين وحسن إدراكهم للبنية الدلالية.

من خلال ما سبق نجد مصطلح "خطاب" يتقاطع مع مصطلحات أخرى، "فالعمل السردي الروائي من حيث هو حكاية وخطاب، فهو حكاية باعتباره يثير واقعة، وبالتالي يفترض أشخاصا يفعلون الأحداث، ويختلطون بصورهم المروية مع الحياة الواقعية".20

وبذلك تستوجب الحكاية بواسطة الكتابة راويا يرويها"فكل ملفوظ هو صنيع عملية التلفظ، والقصة هي ملفوظ لا علاقة له بعملية التلفظ، أما الخطاب فهو نتاج عملية التلفظ ، أي تجسيد عملية التلفظ في الملفوظ". 21 وهذا ما لا يجعل العمل الروائي حكاية وحسب؛ بل هو خطاب أيضا.

الخاتمة :

ويتضح من خلال ما سبق أن بنية الخطاب السردي الروائي تشكلها التواصلات اللغوية في شكل بنى حكائية "تهتم بها سرديات القصة، أما سرديات الخطاب فتركز على ما يميز بنية حكائية عن أخرى من حيث الطريقة التي تقدم بها مادة حكائية، فقد تتشابه المواد الحكائية لكن شكل تقديمها يختلف باختلاف الحكايات وأنواعها، إن فعل الشخصية (الحدث) في القصة يقدم في الخطاب من خلال فعل آخر (السرد) الذي يضطلع به فاعل آخر هو الراوي، وباختلاف الفعلين وفاعليهما يختلف زمان القصة وفضاؤها عن زمان الخطاب وفضائه". وكل هذه تقنيات سردية يحفل بها الخطاب الروائي ليكشف عن كنه البنى السطحية والعميقة للنص.

هوامش البحث :

[1] روبرت شولز، السيمياء والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1994، ص: 15.

[2] ينظر: عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص: 9.

[3] سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1989، ص: 7.

[4] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ضبط وشرح: أحمد أمين وأحمد الزين، ج2، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص: 131.

[5] ينظر: عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص: 261، 262.

[6] عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، ص: 159.

[7] جزن ستروك، البنيوية وما بعدها، من ليفي شتروس إلى دريدا، ترجمة: محمد عصفور، عالم المعرفة، العدد 206، فيفري 1996، ص: 171.

[8] مدخل إلى السيميولوجيا (نص وصورة) تر: عبد الحميد بورايو، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص: 34.

[9] عبد الله إبراهيم، المتخيل السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1990، ص: 154.

[10] سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص: 25.

[11] ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987، ص: 102

[12] فاطمة الزهراء أزرويل، مفاهيم نقد الرواية بالمغرب، ص: 84.

[13] محمد بوعزة، هيرمينوطيقا الحكي، النسق والكاوس في الرواية العربية، ص: 22.

[14] صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 7.

[15] مريم فرنسيس، في بناء النص ودلالته، محاور الإحالة الكلامية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1998، ص: 15.

[16] ينظر: فتح الله أحمد سليمان، الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية، القاهرة، ط1، 2008، ص: 32.

[17] فاطمة الزهراء أزرويل، مفاهيم نقد الرواية بالمغرب، ص: 181.

[18] مريم فرنسيس، في بناء النص ودلالته، محاور الإحالة الكلامية، ص: 50.

[19] ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1997، ص: 32.

[20] ينظر: يمني العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، سلسلة دراسات نقدية، الفارابي، 1990، ص: 27.

[21] روبرت شولز، السيمياء والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1994، ص: 15.